﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٣١ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ٣٢﴾ [لقمان: 31 - 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

العلاقةُ بين أحَديَّة الله وبين توالي نِعَمِ الله على البشر في السَّرّاء والضَّرّاء

لمّا ذكر تعالى تسخيرَ الشَّمس والقمر في الأفلاك مِن العالم العلويّ وامتنانه بذلك علينا؛ ذكر - هنا - تسخير الفُلْك من العالم الأرضيِّ بجامع ما اشتركا فيه من الجريان بالنِّعَم[1]، وضرب لذلك مثلًا براكبي السَّفينة الَّذين اضطرب بهم البحر، وتلاطمت أمواجه، وارتفعت فوقهم كأنَّها ظُلَلٌ، وأيقنوا الهلاك غرقًا، فجأروا إلى الله بالدُّعاء علَّهُ ينجيهم من الهلاك المحقَّق، فلما نجّاهم إلى البرِّ؛ كانت منهم قلَّةٌ ذاكرةٌ، وكثرةٌ ناكرةٌ كافرةٌ، ممَّن نسوا فضلَ ربِّهم، وظلّوا على جحودهم به، ولا ينكر فضل ربِّهِ ولطفه بعد النَّجاة من الهلكة، إلّا غادرٌ ذميمٌ، أو مُسرفٌ في الكفر لئيمٌ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾: (فلك) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على استدارةٍ في شيءٍ، من ذلك فَلْكَةُ المِغْزَلِ بفتحِ الفاءِ، سُمّيَتْ لاستدارتها؛ ولذلك قيل: فَلَكَ ثَدْيُ المرأةِ؛ إذا استدارَ[3]، والفُلْكُ: جمعٌ، لفظُه كلفظِ مُفرده: السَّفينَة، يُذكَّر، ويُؤنَّث[4]، ومن هذا القياسِ فَلَكُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 473.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 616.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(4) الجوهريّ، تهذيب اللغة، وابن سيده، المُحكَم: (فلك).

السَّماءِ: مَجرى الكواكب[1]، والمُرادُ بالفُلْكِ في الآية: اسمٌ لمَرْكَبِ البحر، واسمُ جمعٍ له بصيغةٍ واحدةٍ.

2) ﴿صَبَّارٍ﴾: (صبر) أصلُ الصَّبر هو الحَبْسُ، يُقالُ: صبرتُ نفسي على ذلك الأمر، أيْ: حبستُها[2]، ومن معانيه: حبْسُ النَّفْسِ على ما يقتضيه العَقلُ والشَّرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنه، فالصَّبْرُ لفظٌ عامٌّ، وربَّما خُولِف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبسُ النَّفس لمصيبةٍ؛ سُمّي صبرًا لا غير، وإن كان في محاربة؛ سُمّي شجاعة، وإن كان في نائبة مُضجرة؛ سُمّي رحب الصَّدر، وإن كان في إمساك الكلام؛ سُمّي كتمانًا، وقد سمَّى الله تعالى كلَّ ذلك صبرًا، ونبَّه عليه بقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [البقرة: 177]، والصَّبُورُ: القادر على الصَّبر، والصَّبّارُ يُقالُ؛ إذا كان فيه ضربٌ من التَّكلُّف والمجاهدة، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٣٣﴾ [الشّورى: 33][3]، فالصَّبّارُ في الآية هو مُبالغةٌ في الموصوفِ بالصَّبرِ، أيْ: كثير الصَّبر على البلاء[4].

3) ﴿غَشِيَهُم﴾: (غشى) أصلٌ يدُلُّ على تَغْطيَةِ شَيءٍ بِشَيءٍ[5]، ومنه الغِشاءُ: الغِطاءُ، يُقال: غَشَّيْت الشيءَ تَغْشيَة؛ إذا غَطَّيْته[6]، وتَغَشَّى ثيابه، واستغشاها: تَغَطَّى بها كي لا يَرى، ولا يَسْمع: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: 7][7]، والغِشْيانُ بالكَسْرِ: الإتيانُ، يُقالُ: غَشيَهُ؛ إذا أتاهُ[8]، والغَشْيُ والغَشَيانُ: الإحاطةُ من كُلِّ جانبٍ[9]، والغاشية: القيامة؛ لأنَّها تغشى الخلقَ، فتعمُّ، وبه فُسِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾ [الغاشية: 1]، وفي الصِّحاح: لأنَّها تغشى بإفزاعها[10]، وهو في الآية مُستعارٌ للمجيء المفاجئ؛ لأنَّه يُشبه التَّغطيةَ[11].

4) ﴿مَّوۡجٞ﴾: (موج) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على اضطرابٍ في الشَّيءِ، ماجَ النّاسُ يموجونَ؛

(1) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدَة الحُفّاظ: (فلك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبر).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (صبر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/ 518.
(5) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (غشى).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غشو - غشا).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (عشو).
(8) المُطرزيّ، المُغرب: (غشي).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 64.
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (غشي).
(11) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 10/ 134.

إذا اضْطَرَبوا، وماجَ أمرُهم ومَرِجَ: اضطربَ[1]، وكلُّ شيءٍ اضطربَ؛ فقد ماج[2]، وتَموَّجَ البحر: اضطرَبَت أمواجُه[3]، أيْ: ما يَرتَفِعُ من الماءِ على سطحه عندَ اضطرابه[4]، وهو المُراد به في الآية.

5) ﴿مُّقْتَصِدٌۚ﴾: (قصد) أصل يدُلُّ على وصلٍ، وعلى إتيانِ شَيءٍ، وأَمِّه[5]، والقَصْدُ في الشَّيء: ضدُّ الإفراط، وهو ما بين الإسراف والتَّقتير، المُقتصِدُ: الفاعلُ للقَصدِ، وهو المعتدل في أموره[6]، وقصَدَ في الأمرِ؛ إذا لم يجاوِزْ فيه الحدَّ، ورضيَ بالتَّوسُّطِ، وقيل: أصل (قصد) ومواقعها في كلام العرب: الاعتزام والتَّوجُّه، والنُّهود والنُّهوض نحو الشَّيء على اعتدال كان ذلك أو جَوْرٍ، هذا أصله في الحقيقة، وإن كان قد يخصُّ في بعض المواضع، بقصد الاستقامة دون الميل[7]، والمُراد بالمُقتصِد في الآية: الَّذي يتردَّد بين المحمود والمذموم[8].

6) ﴿يَجْحَدُ﴾: (جحد) أصلٌ يَدُلُّ على قِلَّةِ الخَيْرِ، ويُقالُ عامٌ جَحِدٌ: قَليلُ المَطَرِ، ورجل جَحِد: فقيرٌ قَليلُ الخَيْرِ[9]، ويُقال: جَحِد عَيْشُهم جَحَدًا؛ إذا ضاقَ، واشتدَّ، فالجَحْدُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ: القِلَّةُ، ومِنْ هذا البابِ الجُحُودُ، وهو ضِدُّ الإقْرارِ، كالإنكار والمعرفة[10]، ولا يَكونُ إلّا مع عِلْمِ الجاحِدِ به أنَّهُ صَحيحٌ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النّمل: 14][11]، والمُرادُ بالجُحودِ في الآية: الإنكارُ والنَّفْيُ[12].

7) ﴿خَتَّارٍ﴾: (ختر) أصلٌ يَدُلُّ على تَوانٍ وفُتورٍ، يُقالُ: تَخَتَّرَ الرَّجُلُ في مِشيتِه، وذلك أنْ يمشيَ مِشيةَ الكسلانِ[13]، ومنَ البابِ الخَتْرُ: غدر يَخْتِرُ فيه الإنسان، أيْ: يضعف، ويُكسَر

(1) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (موج).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (موج).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (موج).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 74.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصد).
(6) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 439.
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قصد).
(8) الرّاغب، المُفردات: (قصد).
(9) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حجد).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 191.
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ختر).

لاجتهاده فيه[1]، وقيل: هو الخديعة بعَينها، وقيل: هو أقبح الغَدْر[2]، وذلك أنَّه إذا خَتَرَ؛ فقد قَعَدَ عنِ الوفاءِ، والختّارُ: الغدّارُ[3]، وعن بعضهم: لن تمدَّ لنا شبرًا من غدر؛ إلّا مددنا لك باعًا من ختر[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكيرُ بنعمةِ تسخيرِ البحارِ ونكوص البشرِ بعد إنجائهم من الخطرِ

يذكُرُ اللّهُ الحقُّ سبحانه نعمةً عظيمةً امتنَّ بها على العبادِ، وهي السُّفُنُ الَّتي تجري في البَحرِ بتَسخيرِ اللّهِ تعالى، نِعمةً منه على عِبادِه، ليُريَهم بعضَ آياتِه، كدَلالاتٍ لكُلِّ صَبّارٍ على بلائه، شكور لنعمائه، ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أحوالِ راكبي البحر، عندَما تُصيبُهم الشَّدائدُ؛ إذا غطّاهم مَوجٌ مُتلاطم كالجِبالِ، وخافوا الغَرَقَ دَعَوُا اللّهَ وحْدَه أن يُنَجّيَهم، ولم يَستغيثوا بغَيرِه، فلمّا نجّاهم اللّهُ مِن الغَرَقِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ، فمنهم قليل تذكَّر عهده، واعتدل في عمله، ومنهم كثير نسي فضل ربِّه[5]، وما يَكفُرُ بأدِلَّة اللّه وحُجَجِه، ويُكَذِّبُ بها، ويُنكِرُها إلّا كلُّ غدّارٍ شَديدِ الغَدرِ بعَهدِه، جَحودٍ عَظيمِ الجَحدِ لنِعَمِ رَبِّه، فهو يَنقُضُ ما عاهَدَ اللّهَ عليه، ولا يَشكُرُه على ما آتاه مِن نِعَمِه[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

شواهدُ الإيمانِ شاخصةٌ لِكلِّ ناظرٍ أريبٍ ومُتبصِّرٍ لبيب

جملة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ استئنافيَّةٌ مُناظِرةٌ للاستئنافَيْن اللَّذَيْن قبلها، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: 20]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي

(1) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (ختر).
(2) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم، الزّمخشري، أساس البلاغة: (ختر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ختر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 191.
(4) الزمخشريّ، أساس البلاغة: (ختر).
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 616.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 580، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 351، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 652.

ٱلنَّهَارِ﴾، وجيء بالجملة مفصولةً غيرَ معطوفةٍ؛ لِئلّا يتوهَّم السّامع أنَّ العطفَ على شيءٍ من تقاسيم الجملة، لا على ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وما في حيِّزها جميعًا، وجاء هذا الاستئناف الثّالث في: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾؛ دليلًا ثالثًا على عظيم تدبير الله وتسخيره لآيةٍ أرضيَّة، بعد ذِكْر تدبيره وتسخيره لآيةٍ سماويَّة في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[1].

بلاغةُ الاستفهامِ في: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ كالاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، وليس استفهامًا على حقيقته الإنشائيَّة، بل مُرادٌ به معنى التَّقرير لِمَن آمن، والإنكار على مَن كفر، وهو على هذا مجازٌ مُرسَلٌ أُطلق فيه الإنشاء، وأراد معنى الإخبار، ونضيف أنَّ الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ "تقريريٌّ بالنِّسبة إلى الرَّسول ﷺ، وهو إنكاريٌّ بالنِّسبة إلى غيره، ينكر على أهل الغفلة غفلتَهم، وعلى أهل الإعراض عن النَّظر إعراضَهم؛ إذ لو نظروا، وفكَّروا؛ لاهتدوا إلى توحيد الله، وبعثه عباده للحساب والجزاء يوم القيامة"[2].

مجيءُ الاستفهامِ في معنى الخبرِ مفيدٌ في الإبانةِ عن المُرادِ

دلالةُ الخطابِ في: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي﴾، كالخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، هو لكلِّ مَن يصلح له تلقّي الخطاب وإدراكه، وأصل الخطاب للرَّسول ﷺ، ولذلك جاء بلفظ المفرد؛ لكون النَّبيِّ أحقَّ الخَلْق بالفَهْم عن الحقِّ، فهو أصلح مَن يلتمس العِبْرَة والآية ممّا ذُكِر؛ ولذلك خوطب به؛ للتَّنبيه على أنَّ أكثر الخَلْق محجوبون عن القيام بحقِّ الخطاب من الاستفادة

الرَّسولُ هو أصلحُ مَنْ يَرى وأوعى مَنْ يسمعُ ويعي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 131، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 188.
(2) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 4/ 216.

والاعتبار؛ لإعراضهم وقصورهم، فاستُنْهِضوا إلى ذلك العِلم بخطاب أعلَمِهم وأفضلهم تنشيطًا وإعانةً لهم، بما هو نظيرهم في البشريَّة وأعرقُهُم في الرُّتْبة[1].

معنى الرُّؤية في: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

سريانُ الفُلكِ في البحر من المُبصَرات المُدرَكات بالحواسّ

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ يحتمل أن تكون بصريَّة؛ لأنَّ سريان الفلكِ في البحر من المُبصَرات، ويحتمل أن تكون عِلميَّة قلبيَّة، بمعنى: (ألم تعلم)؛ لأنَّ من النّاس مَن يقضي عمره كلَّهُ، ولا يرى فُلْكًا في البحر تجري، لكنَّه يُخْبَر، فيعلم، فهذه الرُّؤية في حقِّه علميَّة، وقد أشار الشَّعراويُّ إلى أنَّه "ربَّما أنَّ سيِّدنا رسولَ الله لم يَرَ هذه السُّفن في البحار، ولم تكن قد ظهرت السُّفن العملاقة الَّتي نراها اليوم كالأعلام، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرَّحمن: 24]، والبوارج العالية الَّتي تشبه الجبال والمكوَّنة من عدَّة أدوار لم توجد إلّا حديثًا، إذًا فهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن"[2]، وهو ما تتجدَّد به صدقيَّة الكتاب، ومصداقيَّة النَّصِّ القرآنيِّ الَّذي يتجدَّد مَعينُه، وتظهر عجائبه على مدى الزَّمان، وفي كلِّ ظرفٍ وآنٍ.

دلالةُ عموم المشترك في لفظ: ﴿تَرَ﴾:

المُبصَرات شواهد المعارف الشّاخصات في ظواهر الموجودات

مَنْ جَوَّز استعمالَ اللَّفظِ في حقيقتِه ومجازِه، أو إعمالَ المشتركِ في معنَيَيْهِ، يجيزُ إرادة الرُّؤية البصريَّة والقلبيَّة، بالجمع بين العَيان الحسّي، والعِرفان الإدراكيِّ، فهذه ثلاث طرائق: عموم المشترك، أو الجمع بين الحقيقة والمجاز، فالحقيقة للرُّؤية البصريَّة، والمجاز للرُّؤية القلبيَّة، أو عموم المجاز، والأصل: هو الحمْل على الرُّؤية البصريَّة؛ لأنَّ الفُلك من قبيل المُبصَرات، ولأنَّ الرُّؤية بالبصر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 204.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 19/ 11748.

والنَّظر، لسليم الحاسَّة هي توطئة للعِلم والمعرفة القلبيَّة، ولذا فالرُّؤية في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، على طريقة الجَمْع هي رؤية العين، يتركَّب عليها النَّظر والاعتبار[1].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ للجنس، فيشمل كلَّ فُلْكٍ صالحةٍ للإبحار وتُبْحِر بالفعل، والعموم المُستفاد من الجنس حاصلٌ على التَّوزيع باعتبار تفرُّق المُخاطَبين.

محلُّ الاعتبارِ ليس في مُطلق الفُلك بل في كلِّ فُلكٍ تجري بالإبحار

دلالةُ الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾:

التَّعبيرُ بحرف الوعاء في قوله تعالى: ﴿ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، ولم يقل: تجري على البحر؛ لكونِ جريِها حاصلًا في الماء بالفعل، فهي تجري في الماء لا عليه، فأصل الجري حاصلٌ من أسفلها في الجزء الماخِر في الماء المغمور به[2].

الفُلك تجري في البحر بجزئها الماخر في الماء

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾ جنسيَّةٌ في الحقيقة والماهية، والتَّعبير بالبحر دون غيره؛ للدَّلالة على تلك الحقيقة؛ إبرازًا لعجيب حركة الفلك في الماء، والمُراد بالبحر سَعةُ الماء وكثرته، والفُلك تُبْحِر، أيْ: تشقُّ الماء شقًّا، وتتوسَّع في حركتها وجريها فيه، والمُراد بالبحر أيضًا كلُّ ماء واسع، عذبًا كان أو مالحًا، أو المُراد المالِح، وأُطلِقَ على العذب تغليبًا[3].

البحرُ هو كلُّ ماءٍ واسعٍ مالحًا كان أو عذبًا

معنى الباء في قوله: ﴿بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ للإلصاق أو للمصاحبة، فيحتمل أن يريد بذلك ما تحمله السُّفن من الطَّعام والتِّجارات، أو

اللهُ سبحانه يجعل النِّعَمَ منوطةً بالنِّعَمِ

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 355، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 19/ 11748، وطنطاويّ، الوسيط: 11/ 132.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 204.

(3) الرّاغب، المُفردات: (بحر).

يريد الرّيح، فتكون الباء سببيَّةً، وعلى المعنى الأوَّل، فالنِّعمة مفعولةٌ، وعلى المعنى الثّاني فالنِّعمة فاعلة[1].

نكتةُ إضافةِ النِّعمة إلى لفظ الجلالة:

النِّعَمُ كمالٌ في الحياة وهي أثرٌ من آثار كمال ربِّ الحياة

إضافةُ النِّعمةِ إلى الاسم الجليل – في قوله تعالى: ﴿بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ – لإعظام النِّعمة وتفخيم شأنها، والتَّنويه على شرفها بإضافتها إلى الاسم الجليل الجامع لكمالات الإنعام، وتتِمّات الإحسان، والنِّعمة تتجلّى في عطاء الله اللّامحدود، "ذلك من نِعَمِ الله على النّاس، فكما سخَّر لهم البرَّ؛ سخَّر لهم البحر؛ ليريهم من آياته، وليطَّلعوا على آيات الله وقدرته، وآيات وحدانيَّته، وآيات جلاله، وآيات انفراده بالألوهيَّة وبالرُّبوبيَّة ﷻ وعلا مقامه"[2].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِيُرِيَكُم﴾:

كلّما زادت الحركة؛ زاد معها البصر وتنامى الإدراك

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ لام التَّعليل، أيْ: تجري في البحر جريًا، عِلَّةُ خلقِ ذلك الجري أن يُريكم الله آياتِه[3]، وليُريكم من نعمه سبحانه، ويُريكم من آياته العظيمة الباهرة، وقدرته الفائقة القاهرة[4]، والمقصود التَّعرُّف على آيات الله الغزيرة، وحكمته الجليلة في تسخير الكون للإنسان حتّى يهنأ به، ويسعد، وينتفع به على المدى.

معنى الرُّؤية في جملة ﴿لِيُرِيَكُم﴾:

الآياتُ المذكورات من المبصَرات المدركات

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ بصريَّة؛ لكون الآيات من المُبصَرات المشهودة، ولكون هذه الآيات ليست في محلِّ العِلم واليقين، واعتبار الصِّحَّة عند كثيرٍ من النّاس، ولذا كانت الرُّؤية بصريَّةً لا علميَّةً.

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 355، وابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 140.
(2) الكتانيّ، تفسير القرآن الكريم: 6/ 185.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 189.
(4) حطيبة، تفسير الشّيخ أحمد حطيبة: 2/ 234.

معنى ﴿مِّنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ تبعيضيَّة، أيْ: يريكم بعضَ آياتِه؛ لأنَّ آياتِ اللّٰه سبحانه أكبرُ وأكثر من شأن الفُلك في البحر[1].

نكتةُ فصل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ عمّا قبلها:

جملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ في موقع التَّعليل لما قبله، أيْ: يُسيِّر اللّٰه الفُلك؛ ليريكم من آياته؛ لكونِ تلك آياتٍ لكلِّ صبّار شكور، بمعنى أنَّه "صبّار على البلايا، شكور للنِّعم، وعَن بَعضهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾، أي: المُؤمن؛ لأنَّ المُؤمن هُوَ الصَّبّار الشَّكُور، قالَ مطرَّف: نِعْمَ العَبْدُ المُؤمن، إذا ابْتُلِيَ؛ صَبر، وإذا أُعطي؛ شكر[2]، ويصحُّ أن تكون الجملة في موقع الاستئناف البيانيِّ؛ إذْ يخطر ببال السّامع أن يسأل: كيف لم يهتدِ المشركون بهذه الآيات؟ فأجيب أنَّ الَّذي ينتفع بدلالتها على مدلولها هو كلُّ صبّارٍ شكورٍ[3].

آياتُ الله تتجلّى للصّابر الشّاكر

نكتةُ تصديرِ جملةِ الفاصلةِ بحرفِ التَّوكيدِ:

اقترانُ جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ بحرف ﴿إِنَّ﴾؛ لإفادته في مِثْل هذا المقام معنى التَّعليل والمُناسبة مع ما قبله، فهو في مناب حرف التَّعليل، وفي مقام الإغناء عن الرَّبط بالعاطف، ولا يخفى ما في التَّصدير بالتَّوكيد من تحقيق مضمون الجملة؛ لمُناهَزَةِ الغفلة والإعراض في كثيرٍ من المُخاطَبين[4]؛ ثناءً على هذا الفريق تصريحًا وتعريضًا بالَّذين لم ينتفعوا بدلالتها.

من دواعي التَّوكيدِ كونُ الكلامِ من المُهمّاتِ

دلالةُ جمع الآيات وتنكيرها:

جمع الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾، رغم أنَّ الإشارة

النّاس ترى الحقائق بعيون طِباعها وكلٌّ إناءٍ بما فيه ينضح

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 189.
(2) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 79.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 77، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 21/ 189.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190.

تعود على واحدٍ، وهو حال الفُلك المذكورة؛ لانطواء ذلك على كثيرٍ من الدَّلائل والعِبَرِ، أو جمع الآيات بحسب تعدُّد المخاطَبين، وتفاوت عقولهم في الاستخلاص والملاحظة، فكلٌّ يرى في ذلك الشَّأنِ آيةً غيرَ الَّتي يراها غيره، فتصير بمجموعهم آياتٍ لا آية واحدة[1]، والآياتُ من آثار قدرة الله تعالى ورحمته، وعنايته بعباده، وهي آيات كثيرة، منها أن سخَّر البحر تجري فيه الفلك بأمره القدريِّ وقضائه الأزليِّ ولطفه العامِّ وإحسانه التّام، ليُرِيَ النّاس مِنْ آياتِهِ العجيبة، فيكون بها الانتفاع والاعتبار[2].

بلاغةُ الكنايةِ في جملة الفاصلة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كنايةٌ عن لازمِهِ من الإيمان، فكأنَّه قيل: (إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ)، فيلزم عن كون المرء صبورًا شاكرًا أنْ يكون مؤمنًا[3]، وفي الخاتمة بالصَّبّار الشَّكور مدحٌ وثناء للمتَّصفين بذلك، وتنويهٌ بانتفاعهم بالآيات، وتعريضٌ وذمٌّ للجزعين الكافرين، وتسجيلٌ عليهم بعدم الانتفاع[4].

الإيمانُ هو وقود الصَّبر والشُّكر

نكتةُ الختم بصفة الصَّبر والشُّكر:

خُتِمَتِ الآية بقوله تعالى: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ دون غيره؛ لأنَّ الإيمانَ بجميع شُعَبِهِ متوقِّفٌ على هاتَيْن الصِّفتَيْن؛ فالصَّبر هو الثَّبات في مراكز العبوديَّة، والشُّكر رؤيةُ النِّعمة من المُنعِم الحقِّ وصرف نِعَمِه إلى محابِّه، فبهما قوامُ الدّين، فاصطفى من الأحوال ما لا يخرج المؤمن في موقف النِّعمةِ بالعطاء والمنع عنهما، ولا يخرج الكافر في العطاء والمنع عن ضدِّهما - وهما الجزع والكفر - فالمنع يقتضي الصَّبرَ، والعطاء يقتضي الشُّكر، والإنسان مُمْتَحَنٌ بالنِّعم

الإنسانُ مُمْتَحَنٌ بالنِّعم قبضًا أو بسطًا ودوام الحال مُحالٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 652.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190.

قبْضًا أو بسْطًا؛ ليُنظَر هل يتحقَّق بهذَيْن الوصفَيْن أو لا؟ وسبب حصر الفاصلةِ في هذَيْن الحالَيْن أنَّ المقام واردٌ في الإنعام بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، فأخبر أنَّ آياته حاصلةٌ من نِعمَته، ولا يُراعي حقَّ النِّعمة إلّا الصّابرون الشّاكرون، فهو خِتامٌ لوحِظَ فيه مَطلَعُه[1].

براعةُ المناسبةِ بين الفُلكِ والصَّبرِ والشُّكرِ:

ركوبُ البحرِ يقتضي الصَّبور في الأزماتِ والشُّكورَ في المسرّاتِ

بين الفاصلة في قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وذِكْرِ الفُلكِ في المطلع في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى﴾ تمامٌ في المناسبةِ وجزالةٌ في التَّماسُك والالتئام، فإنَّ راكب الفُلك يدور بين حال الخطر وحال السَّلامة، فإنْ واتاه الخطرُ؛ صبَر، وإنْ حضرَتْهُ السَّلامةُ؛ شكَر[2]، والقرآن الكريم ذو عنايةٍ خاصَّة بالتَّنويه على تلك الحال الَّتي تنوب راكبي الفُلك في أكثر من موضع؛ لتقرير ظُلمِ الإنسان في سوء تفاعُلِه مع الخطر العارض، فلا يُلاقيه بالصَّبر، وسوء تفاعله مع الاستقرار والنَّجاة، فلا يُلاقيها بالشُّكر، ولذا كان قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إشارةً إلى سببِ زوالِ الخطر، وهو الصَّبر، وسببِ دوام الأمْنِ، وهو الشُّكر، وفيه أنَّ مَن التزم، وأيقن بقدر الله في المنع والعطاء، فهو من المنتفعين بالآيات، بحيث يكون صبّارًا على الضَّرّاء، شكورًا على السَّرّاء، صبّارًا على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره، شكورًا لله على نِعَمِهِ الظّاهرة والباطنة، وعلى العوارض الدّينيَّة والدُّنيويَّة[3].

دلالةُ بناء المبالغة في: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

دلالةُ المبالغة على إتقان الموصوف لخصائص الصِّفة

جاءت كلمة ﴿صَبَّارٍ﴾ على وزن (فَعّال)؛ للمبالغة في اسم الفاعل (صابِر)، وهذا الوزن يدلُّ على تكرار الفعل مرَّةً بعد مرَّةٍ حتّى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 206، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 112.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 652.

يصل إلى درجة التَّطبُّع به والتَّعوُّد عليه والمُلازمة له، ولذا جاءت الصِّناعات والحِرَف على هذا الوزن؛ لما فيها من حال الملازمة لها وإتقانها كالعطّار، والشَّحّام ... إلخ، فمعنى: ﴿صَبَّارٍ﴾، أيْ: أتقَنَ الصَّبْرَ حتّى احترفَهُ، فصار كالصَّنعةِ بالنِّسبة للصّانع، ولذلك جاء به على وزن (فَعّال) دون (فَعُول - صَبُور)؛ ليدلَّ به على فتوَّة الصَّبْر عند المُتّصِفِ به وكمال مقداره، فالصَّبر في (فعّال - صبّار) أبلغُ وأكمل وأقوى من الصَّبر في (فعُول - صبُور)؛ ولذلك جيء به في الصَّبر دون الشُّكر، فلم يقلِ القرآن: (صبُور شكُور)؛ لأنَّ الصَّبرَ آثقُ وأشدُّ من الشُّكر، فاحتيج معه إلى زيادة المبالغة، ولم يقل: (صبّارٌ شكّار)؛ لأنَّ الشُّكر سهلٌ في إجرائه؛ إذ لا يصحبه عَنَتٌ ومشقَّة كالصَّبر، فجاء به على الوزن الأخفِّ من الصَّبر، ولذلك قدَّم الصَّبر؛ لكونه الأشقَّ، وتوقّيًا من انخرام الفاصلة، ويدلُّ على زيادة المبالغة في (فعّال) على (فعول) زيادة الحروف، وزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى[1].

صيغةُ فعول في قوله (شكور)

وأمّا (فَعُول) في ﴿شَكُورٍ﴾؛ فيدلُّ على قوَّة الفعل وكثرته، وهذا البناء منقولٌ من أسماء الذّوات، كالوَضوء للماء، والوَقود لمادَّة الاشتعال، فإذا قيل: (فلان شكورٌ)؛ فكأنَّه من كثرة صدور الشُّكر عنه، صار كأنَّه مادَّةٌ مُعَدَّةٌ للشُّكر تُستهلك فيه[2].

نكتةُ عدمِ العطف في: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

الصَّبرُ والشُّكر مُتلازمان يتآلفان ويتكاملان

لم يقل في السّياق الكريم: (لكلِّ صبّارٍ وشكور)؛ لدفع إيهام المغايرة والانفصال في الفاعل، ولوجوب اتِّصاف المؤمن بكلا الوصفَيْن، لعدم انفكاك أسبابهما في المحلِّ الواحد، فالإنسان لا يخلو من حال الشدَّة والرَّخاء، فلا بدَّ أن يرد هذا عليه، وهذا عليه،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 423، والسّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 94.
(2) السّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 101.

فوجب أن يكون جامعًا بين الاتِّصاف بالصَّبر والاتِّصاف بالشُّكر، فهما غير منفكَّيْن، وكلاهما مطلوبٌ من العبد، وأيضًا عدم العطف: للدَّلالة على ثبوتِ تكامل الصَّبر بالشُّكر، والشُّكر بالصَّبر، فمَنْ يستطعِ الصَّبرَ؛ يستطعِ الشُّكرَ، ومَن يستطعِ الشُّكر؛ يستطعِ الصَّبر.

دلالةُ موقعِ جملة: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾:

جملة: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ ليجمع بين بيان النِّعمة وبيانِ أصناف المُنعَم عليهم؛ فذكر أوَّلًا الصَّبّار الشَّكور، ثمَّ أتبعه بالختّار الكفور، فهذان صِنْفا المُنْعَم عليهم في شأن الفُلك المذكور[1].

النّاسُ معادنُ في تفاعلهم مع النِّعمة واعترافهم للمُنعِم

بلاغةُ حُسنِ التَّخلُّص في السّياق الكريم:

بين جملة المقطع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ حُسْنُ انتقالٍ وخُلوصٍ من بيان المنتفعين بآية الفلك في البحر إلى بيان الجاحدين لتلك الآية ومُسبِّبِها رغم شهودهم لِما ينبغي أن يحملهم على الإقرار والإيمان، من تعرُّضهم لأخطار الموج وغدرات البحر، ثمَّ فزعهم إلى الاستغاثة بالله واللَّهفة والاضطرار إلى معونته، ثمَّ انقسامهم بعد انكشاف الكرب: إلى مقتصدٍ فقَدَ حرارةَ الإخلاصِ في اللُّجوء إلى الله الَّذي كان يدعو به وقت الأزمة، وإلى عائدٍ لكفره وجحوده كأنَّ شيئًا لم يكن، وقرينة (حُسْنِ التَّخلُّص) في النَّظم الكريم هو التَّفصيل في شأن النّاس، راكبي الفُلك ساعةَ الخطر، فالتَّفصيل دالٌّ على أنَّ ذِكْر الفُلكِ مقصودٌ به أن يُبنَى على هذا الغرض، فحصل الخلوصُ إليه على أسهل الوجوه[2].

حُسنُ الانتقال مُفيدٌ في الإيضاحِ والبيانِ عن الغرضِ المُتاحِ

(1) الخطيب، التّفصيل: 21/ 169.

(2) السّيوطي، الإتقان: 3/ 373، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 190.

دلالةُ التَّفصيلِ والتَّخصيصِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

ما يشغلُ الأذهانَ حريٌّ بالتَّخصيصِ

يصحُّ أن تكون جملة: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ تفصيلًا وبيانًا لِما أُجمِلَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، على أنَّه قد أجمَلَ أحوال راكبي الفلك في حال الخطر وفي حال السَّلامة، فأخبر أنَّهم بين صابرٍ في حال الشِّدَّة، وشكورٍ في حالِ الأمْنِ، فقوله: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فيه إجمالٌ وعمومٌ، يتناول الأحوال جميعًا في الخطر والأمن، ثمَّ بيَّن الإجمال في حالةٍ واحدة، وهي حالُ الخطر والضَّرر، ففصَّل أحوالَ النّاس في تلك الحال: فمنهم مقتصدٌ باقٍ على إيمانِهِ وإخلاصِهِ، قائمٌ على القصد الواضح، فيكون لفظ ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ بمعنى: مقيم على الطَّريق القصد الَّذي هو الإيمان، فيكون هو الصَّبّار الشَّكور المذكور آنفًا، ومنهم ختّار كفور لا يكترث بإنجائه، ولا ينفعل له بالإيمان والإذعان، فتخصيصه لحال الخطر فقط، وتفصيل أحوال النّاس فيها، هو من باب ذِكْر الخاصِّ بعد العامِّ، للتَّنبيه على أهمّيَّة الخاصِّ؛ إذ هو أشغلُ للأذهان، فذكر أوَّلًا حال السَّلامة والخطر، ثمَّ خصَّص بذِكْر حال الخطر فقط، وفصَّل فيها[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(إذا) دون (إنْ):

ألطافُ اللهِ في المخاطرِ واقعٌ مأثورٌ غير منكورٍ

التَّعبيرُ بـ(إذا) دون (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾؛ لأنَّ السّياق في حالةٍ واقعيَّة غير افتراضيَّة، فهي متحقِّقةٌ في وقوعها، ويتأكَّد التَّحقيق بماضويَّة فعل الشَّرط ﴿غَشِيَهُم﴾، والمعنى: وإذا جاءهم في البحر موجٌ متراكبٌ بعضُه على بعضٍ كأنَّه ظُلَلٌ فوقهم، أي: جبال مُظِلَّةٌ أو سحاباتٌ[2]، وفي هذا السّياق عرضٌ للصّورة المُحرجة الَّتي كان فيها راكبو الفلك، وهم في حالةٍ من الهلع والاضطراب،

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالَيْن: 5/ 272.
(2) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/ 89.

وقد أحاط بهم الموج، وسدَّ عليهم منافذ النَّجاة، وكانوا أقرب إلى الهلاك؛ للدَّلالة بعد ذلك على نفاسة الفَرَج، وأهميَّة الإنجاء من ذلك الوضع المُطبق اليائس.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿غَشِيَهُم﴾:

الخطر مُستبِدٌّ مستحكِم ولطفُ الله عاصِمٌ

عبَّرَ النَّظمُ بالغشيان في قوله تعالى: ﴿غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾؛ حيث شبَّهَ الموج في إحاطته بهم وارتفاعه حولهم بالغطاء الَّذي يُطبِقُ على ما تحته بجامع عدم الانفكاك في كلٍّ، فكذلك الموج لا مَفرَّ من هولِه، ولا ملاذ من شدَّتِه، ولك أن تجعل الاستعارةَ تصريحيَّةً، بتشبيه علوِّ الموج بالغشيانِ والتَّغطية، أو أن تكون استعارةً تمثيليَّةً حاصلةً في التَّركيب، بتشبيهِ هيئةٍ بهيئةٍ[1].

نكتةُ الالتفاتِ في جملة: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾:

الخطابُ يأتي على الإفرادِ ليتلقّاه كلُّ امرئٍ على نفْسِهِ

في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ بعد قوله قَبْلَهُ: ﴿لِيُرِيَكُم﴾ التفاتٌ من الخطاب إلى الغَيْبة، ولو اطَّرد النَّظم لقيل: (وإذا غشيكم) ليتَّحد مع الضَّمير في قوله: ﴿لِيُرِيَكُم﴾، وهذا مبنيٌّ على أنَّ الخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لغير مُعيَّن، والمقصود به المشركون، وإلّا فلا التفات[2].

نكتةُ إفرادِ لفظ ﴿مَّوْجٌ﴾:

داخِلُ الموجِ العظيمِ أمواج تتوالى بعضها فوق بعض

أُفرد الموج في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾؛ لأنَّه على إرادة الجنس، فهو اسم جنس، واحده (مَوْجَةٌ)، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: 22][3]، فأفرده لدلالته على الجنس عامَّة، وقد جعله في كلِّ مكانٍ؛ لكونه جمعًا في المعنى[4]، فهو مُتعدِّدٌ ومتوزِّعٌ، ولذلك جمع له المُشبَّه به في قوله: ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾، فكلُّ تقسيمٍ

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاوي على الجلالَيْن: 5/ 272.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 423، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 112.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 112، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 231.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 423.

من تقاسيم الموج كظلَّةٍ من جبلٍ أو سحابٍ، أو الإفراد؛ لأنَّه يأتي متتابعًا، فتتركَّب أجزاؤه بعضُها فوق بعضٍ، فيكون كالشَّيء الواحد، ويكون آخر ما يُرى منه هيئة الشَّيء الواحد لا المجموع المُتفرِّق[1].

دلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿مَّوْجٌ﴾:

عِظَمُ الموجِ مفيدٌ أنَّ الخوف قد بلغ الأوجَ

قوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾ نكرةٌ في سياق الشَّرط، فتعمُّ، وغرض التَّنكير هو التَّعظيم والتَّكثير[2]، ومفاده أنَّه إذا غشي هؤلاء الَّذين يشركون باللّه في حال ركوبهم البحر موجٌ كالظُّلم، حيث شبَّه سواد كثرة الماء وتراكب بعضه على بعض بالظُّلم، وهي الظُّلل جمع ظلة، وقال الفرّاء: الظُّلل هنا: السَّحاب[3] المتراكم، بعضُه فوق بعضٍ، وهو منظر مهول، لا يدرك خطورته وهلع النّاس إبّانه إلّا مَن عايشه، وأحسَّ بتلك المشاعر الَّتي تبلغ فيها القلوب الحناجر، ويصل فيها الخوف مداه، ويبلغ فيها اليأس مُنتهاه.

بلاغةُ التَّشبيهِ المُرسل ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾:

الموجُ غاشٍ مُطبقٌ كهيمَنَةِ الظُّلَّة على مَن تحتها

في قوله سبحانه: ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ شبَّه الموجَ في إحاطته وغشيانه وعلوِّه عليهم بمظلّات السَّحاب؛ وهي قِطَعُهُ العظيمة أو مظلّات الجبال، وهي مُرتفعاتُهُ الَّتي تُغيِّبُ ما تحتها، وتُظِلُّه، والغرض من التَّشبيه تعظيمُ حجم الموج وكَمِّه، فهو هائلٌ لا يُغالَب[4].

معنى (أل) في لفظ ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾:

الظِّلالُ في القرآن وردت فيما يُمدَح والظُّلل فيما يُتوقَّى منه

(أل) في ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ لتعريف الجنس، فيدخل فيه كلُّ ما من شأنه أن يُظِلَّ، ويَغْشَى ما تحته باستيعاب، كظُلَلِ السَّحاب أو ظلل الجبال، والمُراد من الجنس الحقيقة والماهية، وليس الاستغراق[5]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 207.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 231.
(3) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 9/ 5739.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 423، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 231.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 231.

وهو مظهرٌ من كمال صبرهم وشكرهم، حيث إذا غَشيَهُمْ، وغطاهم أحيانًا مَوْجٌ عظيمٌ هائلٌ، واستعلى مُغلقًا عليهم كالظُّلَلِ المُغطّية إيّاهم من الجبال والسُّحب، دَعَوُا اللَّه الواحد، حاصرين التَّوجُّه والانقياد نحوه بلا ميلٍ منهم إلى الأسباب والوسائل العادية، مُتضرِّعين نحوه، داعين إليه بلا رؤية الوسائل في البَيْن على ما هو مقتضى فطرة التَّوحيد، فَلَمّا نَجّاهُمْ سبحانه بفضله؛ كان منهم مقتصدٌ باقٍ على طريق التَّوحيد، لا يعدل عنه إلى غيره، ومائل إلى الكفر والنُّكران[1].

دلالةُ وزنِ الجمع في لفظ (ظُلَل):

(ظُلل) جمع ظُلَّة، وهو جمع كثرة، وعُبِّر به دون جمع القلَّة (ظِلال)؛ للدَّلالة على خطَرِ الموج المُطبِق، ولا يكون كذلك مع قِلَّة[2]، والظُّلَّة هي الَّتي تعلو الإنسان، وتُظلِّله، ولا يكون الموج ظُلَّة إلّا إذا علا على مستوى الإنسان، وخرج عن رتابة الماء المعتادة، وقد ورد قوله تعالى: ﴿*وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171]، والعِبرة بخطورة الموج وتعاليه وإرهابه لمَنْ يغشاه، واليقين بالهلاك؛ لولا لطفُ اللَّه[3].

الظلَّةُ موجٌ غامرٌ وخطرٌ داهمٌ ظاهر

عِلَّةُ وصفِ المشركين بلفظ ﴿مُخْلِصِينَ﴾:

وصفُ الدّاعين بالإخلاص في جواب الشَّرط – في قوله تعالى: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ – للدَّلالة على أنَّهم في حالٍ من الكَرَب تشهدُ العقول بأنَّ معبوداتِهم الباطلة لا شَرِكَةَ لها فيها ولا مَدْخَل، فلمّا زال عنهم ما ينازع الفطرةَ من الهوى والتَّقليد، بما دهاهم من الدَّواهي والشَّدائد؛ تخلَّصوا من حجاب الغفلة، وأبصروا الحقيقةَ خالصة لا ريب فيها، والوصف بالإخلاص فيه توطئةٌ للتَّهكُّم بهم،

آفةُ العبدِ نسيانُ ما قطعَ على نفسِهِ من عهدٍ

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 2/ 137.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 231.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 19/ 11752.

والتَّسجيل عليهم؛ لأنَّ مؤدّاه إلى قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، فعلى معنى: أنَّ الاقتصاد هو التردُّد بين الإيمان والكفر، أو هو خِفَّةُ الاعتقاد ورِقَّة الإخلاص والدّين، يكون معنى التَّهكُّم كأنَّه قيل: (دعوا الله بإخلاصٍ واضطرارٍ بُغيةَ النَّجاة، فلمّا حصل ذلك؛ نكصوا، وارتدّوا، وكانت أحسن حالٍ فيهم حالَ الاقتصاد في الدّين، لا حال الإخلاص الَّتي دعوا بها) ومحلُّ التهكُّم: أنَّ هذه حال لؤم وانتفاء مروءةٍ وقِلَّةِ وفاءٍ ومُسارعةٍ إلى التَّلوُّنِ والنُّكران؛ إذ الإنجاء كان يقضي مُلازمتهم وبقاءهم على حال الإخلاص الَّتي دعوا بها[1].

دلالةُ اللّام في شبه الجملة ﴿لَهُ﴾:

التَّعبيرُ بإخلاص الـدّيـن عـنـد الاضـطـرار لـربِّ العالمين

اللّام في قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ معناها الاختصاصُ والتَّعليل، أيْ: مخلصين لأجلِهِ الدّين، ومختصّينَه بذلك الإخلاص، ويتأكَّد معنى الاختصاص بتقديم الجارّ والمجرور، فالتَّقديم مبالغةٌ فيه مع ما في التَّقديم من زيادة معنى الحصر، أيْ: مخلصين له الدّينَ وحدَهُ.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلدِّينَ﴾:

الـدَّيـنـونـةُ للمعبود الأوحد مـنـجـاةٌ من عبوديّاتٍ لا تنفد

(أل) في لفظ ﴿ٱلدِّينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لاستغراق خصائص الجنس، والمُراد بالدّين: العبوديَّة، من الدَّينونة، كأنَّه قيل: أخلصوا عبوديَّتهم كلَّها لله، فالأداة (أل)، لها معنى التَّأكيد للإخلاص في قوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾؛ إذ الإخلاص معناه انتفاء الشَّوائب، و(أل) أفادت استغراق الدّين كلِّهِ، فمعنى الاستغراق يستلزم ألّا شوائب ولا دَخَل.

نكتةُ حذفِ مُتعلّق الدُّعاء:

في قوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ حُذف متعلَّق

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 355، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 47.

الدُّعاء فلم يُذكر بأيِّ شيء دعوا، وذلك لتعظيم أمر الدُّعاء، وأنَّه لِعموم الأهوال الَّتي نالَتْ منهم؛ تنوَّعت أغراضُهم في الدُّعاء، فكلٌّ يدعو بِهَمِّه، فتعذَّر التَّعيين لتفاوت أغراض الدّاعين، وأيضًا لتعجيب السّامع؛ لتذهب العقول فيما دَعَوا به كلَّ مذهبٍ[1].

كلُّ امرئٍ يدعو بمقالٍ وإن اتَّحد الموقِفُ في المآل

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾:

جملة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ معطوفة على جملة الشَّرط وجوابه: ﴿غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾، ومعنى الفاء التَّعقيب؛ لإفادة سرعة إجابتهم فور دعائهم مضطرين[2]، ومع الإجابة الفوريَّة، فهم لا يرجعون إلى الله، فإنابتهم تكون في الشِّدَّة اضطرارًا ثمَّ إذا كُشِفت عنهم الشِّدَّةُ رجعوا إلى ما كانوا عليه من شركهم وسوء أفعالهم.

اللهُ سريعُ الإجابةِ لا يتأخَّرُ فَرَجُهُ عن المُضطرّين

دلالةُ (لمّا) على الشَّرطيَّة:

جملة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ صُدِّرت بـ(لمّا) الحينيَّة الشَّرطيَّة غير الجازمة، وهي تستدعي فعلَيْن ماضيَيْن، الأوَّل: فعل الشَّرط، والثّاني: جواب الشَّرط، وتقدير الجواب هنا: (فلمّا نجّاهم؛ انقسموا، فمنهم مقتصدٌ)، فجملة: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ معطوفةٌ على الجواب، وليست هي الجواب، و﴿فَلَمَّا﴾ تُفيد الظَّرفيَّة الزَّمانيَّة، ومعنى شرطيَّتِها مُوجَب، فهي أداةُ وجودٍ لوجودٍ، أيْ: وجود الجواب لوجود الشَّرط، فهي تُفيد تَحقُّق الجواب بتحقيق الشَّرطِ، ومعنى التَّحقُّقِ ظاهرٌ في مجيء فعلَي الشَّرطِ وجوابه ماضيَيْن، وهي ظرفيَّةٌ بمعنى (حين)، فحين وقع الشَّرطُ حصلَ الجواب، فحينُهما واحدٌ، ولذا جاءا ماضيَيْن[3]، وجاء التَّركيب على أسلوب الشَّرط، ولم يجئ بالخبر؛ لأنَّه تعيينٌ لتوقيت انقسامهم بتعليقه على حين إنجائهم.

تتمايزُ معادن النّاس في السَّرّاء والضَّرّاء

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 15/ 207.
(2) نظم الدُّرر: 15/ 208، وصافي، الجدول: 11/ 98.
(3) عضيمة، دراساتٌ لأسلوب القرآن: 2/ 627، والخطيب، التفصيل: 21/ 169.

دلالةُ التَّضعيف في: ﴿نَجَّىٰهُمۡ﴾:

حين يلطف اللهُ يُذهِلُ ويُدهِش بعطاه

لم يقل في السّياق الكريم: (أنْجاهُمْ)؛ بل جاء بالتَّضعيف الدّالِّ على التَّعدية كالهمزة، إلّا أنَّه يزيدُ في إفادة المبالغة والكمال في الإنجاء، وتمام التَّمكُّن منه، أي: نجّاهم إنجاءً بالغًا تامًّا، ويدلُّ (فعَّل) أيضًا على التَّدريج، أيْ: نجّاهم شيئًا فشيئًا من تلك الأهوال، وفي التَّدريج كمالُ رحمةٍ؛ لأنَّ انتزاعهم من الأهوال فجأةً قد يودي بهم، وفيه عِبْرة؛ ليتمكّنوا من متابعة إنجائهم، وملاحظة حصوله، فيعتبروا، فالتَّدريجُ ألحظُ للمِنَّة[1].

نكتة تعديَةِ ﴿نَجَّىٰهُمۡ﴾ بـ﴿إِلَى﴾:

لُطفُ الله يمتدُّ بالعبد فوق ما كان يرجو

تعديَةُ التَّنجية بحرف الانتهاء في قوله تعالى: ﴿نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾؛ للتَّنصيص على غاية الإنجاء، وتحقيق تخليصهم من الأهوال، ولذلك قيَّده بالبَرِّ، فلم يقل: (نجّاهم من الموج)، بل نجّاهم إنجاءً كاملًا تمكَّنوا فيه من الوصول إلى شاطئ السَّلامة[2].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡبَرِّ﴾:

مكانُ النَّجاةِ البرُّ المعلوم مقابل البحر الموسوم

(أل) في ﴿ٱلۡبَرِّ﴾ للعهد؛ لأنَّه حصل إنجاؤهم في مكانٍ مُعيَّنٍ من البَرِّ؛ لكون الكلام على مُعيَّنَيْن، والبحر عنوان الشدَّة والأزمة، والبرُّ رمزٌ للرَّخاء والانفراج، ومتى مرَّ الإنسان بالحالَيْن؛ فهو قد مرَّ على الامتحان، وانقلب من العسر إلى اليسر، وهو على المحكِّ في تمييز حاله، بين أن يعتدل في جحوده وغلوائه، فيوفي بعهده لربِّه، أو يكون من الجاحدين، فينقلب على عقبيْهِ، وينسى ما مَنَّ الله به عليه، من نجاةٍ وفرجٍ.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَمِنۡهُم﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم﴾؛ للتَّفريع والتَّفصيل في الأقسام،

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 15/ 208.
(2) ابن عُثيمين، تفسير سورة لقمان، ص: 188.

وهي عاطفةٌ مدخولها على جواب شرط محذوف، والتَّقدير: (فلمّا نجّاهم إلى البَرِّ انقسموا؛ فمنهم كذا ومنهم كذا)، و(من) في قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ﴾ للتَّبعيض، أيْ: فريقٌ منهم مُقتصدٌ، والتَّفريعُ يُفيد معنى التَّسبيب، أيْ: فتسبَّب عن إنجائهم انقسامُهم إلى مُقتصدٍ وإلى جاحدٍ، وجعل الإنجاء سببًا في انقسامهم؛ إشارةً إلى أنَّ اجتماعهم على الإخلاص كان بسبب عارضِ الاضطرارِ، فلم يكن عن رسوخٍ[1].

المصاعب تُعيدُ الإنسانَ إلى الإيمان وقليلٌ مَن يثبتُ على الإيقان

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿مُّقْتَصِدٌۚ﴾:

تنكير لفظ ﴿مُّقْتَصِدٌۚ﴾ للتَّنويع، أيْ: نوعٌ منهم مُقتصدٌ، وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ﴾، أيْ: "عدلٌ موفٍ في البَرِّ بما عاهد عليه اللّه في البحر من إخلاص الدّين له، باقٍ على ذلك بعد أن نجّاه اللّه من هول البحر، وأخرجه إلى البَرِّ سالمًا"[2].

الوفاءُ بعهد الله نجاةٌ ونكثُهُ هلاكٌ

نكتةُ إيثار ﴿مُّقْتَصِدٌۚ﴾ على (قاصد):

التَّعبير بـ﴿مُّقْتَصِدٌۚ﴾ دون (قاصِد) في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ﴾؛ للدَّلالة على تكلُّف القصد الصّالح، وهو سبيل الوسطيَّة القائم بالقسط والحقِّ، وهذا على معنى أنَّ ﴿مُّقْتَصِدٌۚ﴾ معناه: مؤمن، وهو الظّاهر، وإن كان بمعنى التَّوسُّط بين الكفر والإيمان، وهي الذَّبذبة الَّتي يتنازع بها بين حال الاضطرار والإخلاص الَّذي كان عليه، وحال الكفر الَّذي كان عليه من قبل، فقال: ﴿مُّقْتَصِدٌۚ﴾؛ ليدلَّ به على معنى التَّكلُّف والحَيْرة الَّتي في تلك الحال، ويدلَّ على أنَّ الزَّعزعة عن حال الإخلاص هي تَنَحٍّ عن الحال السَّهلة الأصيلة، ويكأنَّ الإنسان حتّى يحيد عن الفطرة لا بدَّ أن يتكلَّف؛ لأنَّه حينئذٍ على خلاف الأصل[3].

الانسلاخُ من الفطرةِ تكلُّفٌ ينأى عن الطَّبعِ السَّليمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 208، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 191، والخطيب، التّفصيل: 21/ 169.

(2) القنّوجيّ، فتحُ البيان: 10/ 301.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 217، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 208.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

أكثرُ النّاس يجحد بالله الغالبِ ولا يُبالي بالعواقب

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ معطوفٌ على مُقدَّر: (انْقَسَمُوا، فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ)، وحذف المعطوف، وهو القسيم الثّاني، أيْ: ومنهم جاحدٌ، بدلالة ما بعده عليه، وهو قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، ونكتة الحذف: استِفادتُهُ من جملة الفاصلة، فحذفه طلبًا للإيجاز واستنهاضًا للأذهان أن تستنبط، وتتفاعل، وأيضًا لاستفادة التَّقليل من التَّبعيض في قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، فيفيد التَّبعيض مع حذف القسيم أنَّ المقتصد قليلٌ، وأنَّ الجاحد كثيرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: 49]، ولو لم يطوِ ذِكْرَ الجاحد؛ لم يُلحظ ذلك، وطيُّ الجاحدِ من الاحتباك[1].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾:

الاستدلالُ بالعامِّ على الخاصِّ مُفيدٌ في الإبانة عن المعنى

جملة: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ استئنافٌ تذييليٌّ فيه معنى تعليل الجحود المفهوم من مضمون الجملة قبله بتقرير الوصف العامِّ المطَّرد في أفراده في كلِّ مقام، فيشمل مقام الفُلك المذكور وخلافه، كأنَّه قيل: كان منهم الجاحد بآيات الله وألطافه في الإنجاء من أهوال البحر وأخطاره؛ لأنَّ هذا دأب كلِّ جاحدٍ في كلِّ وقتٍ، فلا يجحد بآياتنا إلّا كلُّ ختّارٍ كفور، فالتَّذييلُ من باب الاستدلال بالعامِّ على الخاصِّ، أي: الاستدلال على جحود النّاس رغم الإنجاء من الفلك، وهو أمرٌ خاصٌّ بتقرير أمرٍ عامٍّ يُعلِّل ذلك الجحود، ويُزيلُ التَّعجيب منه والاستغراب، وهو ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

بلاغةُ الاستثناء المُفرَّغ في السّياق:

لا يُؤْمَنُ الغادرُ مع ربِّه وكلُّ ناكثٍ لعهده منبوذٌ مطرودٌ

جاء التَّذييلُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ على طريقة النَّفي والاستثناء المفرَّغ من عموم الأحوال

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 423، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 209.

لتقرير العموم وتأكيد المضمون، ولإظهار التَّركيب بمظهر الأمثال السّائرة، والأحكام المُقرَّرة، والقوانين المُشتَهِرة المحفوظة والجارية على الألسن، فكأنَّه قيل في الاستثناء: ما يجحد بآيتنا في كلِّ حالٍ من الأحوال إلّا كلُّ ختّار كفور، فالاستثناء يفيد الحصرَ وتوكيد العموم والشُّمول[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَجۡحَدُ﴾:

الجحودُ أشدُّ الإنكار والختْر أشدُّ الغدر

عُبِّرَ بالجحود في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾؛ ليدلَّ به على تمحُّض الختّار الكفور في النَّفي والإنكار القلبيِّ للحقيقة الَّتي أبصرها وشهدها، فالجحودُ على هذا أعلى مراتب النَّفي والإنكار، وقد اصطفاه هنا؛ لأنَّهم عاينوا الإنجاء، وعاينوا في أنفسهم الاضطرار إلى الرَّحمن، فرغم الشُّهود حصل الجحود، فكان الإنكار في هذا المقام جحودًا لا مجرَّد إنكارٍ، وأيضًا عبَّر بالجحود؛ ليتناسب مع وصفه الفاعل بالختّار، فإنَّ الختْرَ أشدُّ الغدر، فاللّائق به الجحود، وهو أشدُّ الإنكار والنَّفي[2].

معنى الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

الباء في ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾؛ لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول، مثل قوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6][3].

نكتةُ جمعِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مضافةً إلى الضَّميرِ:

تكون الخسارةُ عظيمةً بقدرِ جحدِ الآياتِ الكريمةِ

جمع الآيات في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ لإفادة أنَّها آياتٌ كثيرة، ومع كثرتها وتظاهرها؛ جحدها الكافر، وما أغنتْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 191.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات: (جحد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 191، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 21/ 250.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 192.

عنه شيئًا، ففي الجمع تعريضٌ به، وتسجيل عليه، وإضافةُ الآياتِ لنون العظمة: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾؛ للإنباءِ بمقدار الخسارة الَّتي لحقته بجَحْده الآيات، فهي خسارةٌ عظيمة؛ لأنَّها ليست كأيِّ آياتٍ، بل هي آياتٌ عظيمة؛ لكونها منسوبةً ومُضافة إلى الله العظيم ﷻ، فعلى قدر عِظَمِ الآيات كانت خسارتهم عظيمةً وبالغةً بسبب جحدها، وفوات انتفاعهم بها.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغيبةِ إلى التَّكلُّمِ:

الدُّعاءُ مبنيٌّ على شهودِ الغيبِ والتَّعلُّق بجلال الله وكماله

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾، انتقالٌ من الغيبة إلى التكلُّم، فلم يقل: (وَما يَجْحَدُ بآياته)؛ لكون الدُّعاء مبنيًّا على شهود الغيب ومُطالعة الجلال، والتَّعلُّق بالكمال الأعلى، لا سيَّما عند الاضطرار، فلتحقيق المناجاة وإيقاعها موقع الإخلاص والاضطرار، وشدَّة الرَّغبة في النَّجاة؛ التفت إلى الخطاب لكمال الإقبال على المخاطَب سبحانه.

بلاغةُ الاحتباكِ في الفاصلتَيْن:

إلحاقُ النَّظير بنظيره مفيدٌ في البيان عن تعبيره

سبق بيان أنَّ في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ احتباكًا دلَّ على المقابل المحذوف، والتَّقدير: (فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ومِنْهُمْ جاحِدٌ)، فكذلك هنا في الفاصلتَيْن احتباكٌ أيضًا في قوله: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وقوله: ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، بجعْلِ المقتصد إزاء الصبّار الشَّكور، وجعْلِ الجاحد إزاء الختّار الكفور[1].

بلاغةُ المقابلة والطِّباق في الفاصلتَيْن:

الغادِرُ لا يصبر على المودَّة ولا يُؤتَمَن له جانبٌ

في قوله تعالى: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ بين (الصّبّار) و(الختّار) طباقٌ؛ لأنَّ مَن غدر؛ لم يصبر على العهد[2]، وبين (الشَّكور) و(الكفور) طباقٌ كذلك، ومجموع الفاصلتَيْن

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 209.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 104.

بالاحتباك المُقدَّر بينهما مقابلة، فالمقتصد الصَّبّار الشَّكور، يُقابل الجاحدَ الختّار الكفور[1].

غرضُ صيغة المبالغة: ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾:

لمراعاة تمام المقابلة بين الفاصلتين في قوله تعالى: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وقوله: ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ جاء ﴿خَتَّارٍ﴾ على وزن ﴿صَبَّارٍ﴾، وجاء ﴿كَفُورٍ﴾ على وزن ﴿شَكُورٍ﴾؛ لتحقيق المقابلة وزنًا ومعنًى[2]، ومن غدره أنَّه عاهد ربَّهُ لئن أنجيتنا من البحر وشدَّتِه؛ لنكونن من الشاكرين، فغدر، ولم يَفِ بذلك، فهل يليق بمَنْ نجّاهم الله من هذه الشدَّة إلّا القيام التام بشكر نِعَمِ الله؟.

الصَّبْرُ رأس الفضائل والصّابرون صفوةٌ أماثل

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفُلك والسَّفينة:

السَّفينة تُقال باعتبار الحركة الظّاهرة على وجه الماء، وهي حركةٌ ينتجُ عنها تنحية الماء، كأنَّها تنحَّت فيه، وتقشَّر سطحه عن سائره، والفُلْك تُقال باعتبار كيفيَّة هذه الحركة في انطلاقها ومآلها، فهي حينما تذهب، وتعود، صارت كأنَّها تدور، وباعتبار هيئة الاستدارة الغالبة عليها، أو المقارِبة لها، وعبَّر هنا بالفلك؛ لمناسبة الدَّلالة على كيفيَّة الحركة غير المرئيَّة، وهي الحاصلة بالجري في الماء، أيْ: داخِله، وهذه الكيفيَّة دلَّ عليها حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾، ولم يقل: (على البَحْرِ)؛ لأنَّه أراد ما ليس ظاهرًا، ولذا ناسبه التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْفُلْكَ﴾.

السَّفينةُ حركةٌ ظاهرةٌ على الماء والفُلك مبدأُ هذه الحركة وغايتها

الجحود والنُّكران:

الإنكار نوع من الجهل، والجهل فيه خفاء الدَّليل؛ ولذا استعمل الإنكار في الشَّيء الخفيِّ الَّذي لا يظهر دليله[3]، ولذا فقد استعمل

ما جاء جاحدٌ بخيرٍ قطُّ والجحود آفة الشُّهود

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 209.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 424.
(3) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 175.

الجحود هنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾؛ لأنَّه كان مقترنًا برؤية الآيات والعلم بها، والتَّحقُّق منها، بل كان عن تجربةٍ حين عاينوا إنجاءهم من الأهوال، بعدما دعوا الله مخلصين له الدّين، فلم يكونوا جاهلين أو معذورين.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»